المشرق

غريغوريوس ابو الفرج المعروف بابن العبري*

للاب لويس شيخو اليسوعي

١

بينا كنّا سائرين في غُدوة اليوم الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٨٩٦ مُيمّمين الموصل ونحن على وشك دخولها اذ لاح لنا في البعد على منعطف الجبال الممتدّة من عن يميننا وشرقيّ البلد بناء واسع الارجاء استافت منّا الابصار واستحثّ الخواطر. فظننّا لاوّل وهلةٍ انّهُ قصرٌ قديم ابتناه بعض اهل الثروة ليقضي فيهِ فصل الصيف ترويحاً للنفس. وكان في صحبتنا قسٌّ من اهل تلك الاصقاع فسألنا بعضَ رفقتنا عن اسم البناية وقاطنيها. فاجابنا الرجلُ وهو يعقوبيُّ النِحلة: هذا ديرنا الشهير دير مار متّى(١ يسكنهُ رهباننا ونحن نعظّمهُ ايَّ تعظيم لأنّ فيهِ قبر بعض علمائنا المسمّى بابن العبريّ

---

* قد استخلصنا هذه المقالة من عدّة كتب قديمة وحديثة نخصُّ منها بالذكر: اولاً تاريخ الكنيسة لابن العبري بالسريانية وهو ثلاثة اجزاء طبع في لوفان سنة ١٨٧٢ — ١٨٧٧ (ed. Lamy). ثانياً تاريخهُ المدنيّ بالسريانية الموسوم (مَحدثُنَا آخْنْ) طبع في ليبسك (ed Bedjan). ثالثاً تاريخ الدول لهُ نشرهُ بالطبع في مطبعتنا الاب انطون صالحاني سنة ١٨٩٠. رابعاً المكتبة الشرقيّة للسمعاني الجزء الثاني ص ٢٩٦. خامساً الشرق المسيحي الجزء الثاني ص ١٤٥ (ed. Lequien). سادساً مجموع ليتورجيات اليعاقبة والنسطورة طبع في باريس سنة ١٧١٦ الجزء الثاني ص ٤٦٩ (ed. Renaudot). سابعاً آداب اللغة السريانية طبع في لندن باللغة الانكليزية سنة ١٨٩٤ (ed. W. Wright). ثامناً تاريخ الطبّ العربي الجزء الثاني ص ١٤٧ طبع في باريس (ed. L. Leclerc). تاسعاً عدّة افادات التقطناها في اثناء سفرنا الى بلاد ما بين النهرين سنة ١٨٩٦

١) قال ياقوت في معجم البلدان (الجزء الثاني ص ٦٩٤) دير متّى بشرقي الموصل على جبل

فما طرق مسامعنا هذا الكلام حتى ثارت فينا رغبةٌ شديدة الى زيارة هذا الدير الجليل وقد كنا قرأنا في تواريخ كثيرٍ من القدماء انّ اصلهُ يرتقي الى اوائل النصرانيّة. وزادنا بغيةً في مشاهدتهِ ذكر رجلٍ طارت في الشرق سمعتهُ ولم تزل الالسن تنطق حتى الآن بمديحهِ. وكنا مذ عبرنا الفرات قرب البيرة (بيرجك) لم يكد يمرُّ علينا يوم واحد دون ان نسمع لهذا الكاتب الجليل ذكرًا او نرى لهُ اثرًا محمودًا ولكن حال دون مرامنا أنّ الطرق المؤدّية الى الدير المذكور لم تكُ مأمونةً وكان يقطعها وقتئذٍ بعض اهل الدّعارة يعكّرون كأس الراحة والنظام العمومي. فانثنينا عن عزمنا مع الأسف على فوات الفرصة

الّا اننا ما برحنا منذ ذلك اليوم نجمع ما امكننا من مآثر ذلك العلّامة الفاضل وتفاصيل حياتهِ لعلّنا ننشرها يومًا بالطبع افادةً لجمهور الشرقيين وتحريضًا لارباب القلم كي يتأسوا بسنتهِ ويجارونهُ في اجتهادهِ وغيرتهِ

وقد احببنا اليوم ان نورد لمعةً من اعمال هذا الاسقف الخطير الذي يحقُّ للنصرانية ان تفتخر بذكرهِ لانهُ كساها بعلمهِ الواسع وآدابهِ مزيد هيبة ورونق. وتيسيرًا لبيان هذه الآثار رأيتُ ان اقسم هذه المقالة الى قسمين اذكر في اوّلها ترجمة هذا الجهبذ المتقدم وفي الآخر ما خلف بعدهُ من التركة العلميّة والتآليف الحسنة التي رفعت بهِ الى اعلى مراتب الكتّاب الكنسيين بل وجعلتهُ في مقام اثير بين ادباء عصرهِ وحكماء زمانهِ

٢

لقد كفانا ابن العبري المؤونة للتنقيب عن اخبارهِ بما اودعهُ في كتبهِ من تفاصيل سيرة حياتهِ الّا انّ هذه الآثار متفرّقة في تآليفهِ العديدة يتحتّم علينا جمع شتاتها في هذه النبذة.

وُلد ابن العبري سنة ١٥٣٧ للاسكندر الموافقة لسنة ١٢٢٦ للميلاد في مَلَطية حاضرة ارمينية الصغرى على ضفّة الفرات. وكان يتولّى هذه المدينة وقتئذٍ عُمّال من قبل

شاغ يقال لهُ جبل متّى من اشترفهُ نظر الى رُستاق نينوى والمرج وهو حسن البناء واكثر بيوته منقورة في الصخر وفيهِ نحو مائة راهب. . . وبينهُ وبين الموصل سبعة فراسخ (اه). وهذا الدير لا يزال حتّى اليوم عامرًا بالرهبان وهو احد كراسي الاساقفة اليعقوبيين يُدعى ايضًا دير كُوكتا (قهقهة) عند السريان. ويسمّون الجبل دير إلّيف (الحنف)

بني سلجوق ملوك الروم وهي تُعدّ من اعظم قواعد تلك الاصقاع رغماً عما دهمها من نوائب الزمان لانّ غزوات جنكزخان وقومه تاتار المغول كانت قد طمست جانباً من محاسنها. ولم تزل اذ ذاك حافلةً بالنصارى يأتونها من كل فجّ لما يجدون فيها من اسباب المعاش في صحبة بني جلدتهم. وكان قد اشتهر بملطية قبل ابن العبري بزمن يسير رجلان عُرفا بين اليعاقبة بفضلهما وسعة معارفهما اعني ديونيسيوس برصليبي المتوفّى سنة ١١٧١ وميخائيل الملقّب بالكبير المتوفّى سنة ١١٩٩

وكان ابو صاحب الترجمة يُدعى أهرون. وليس في اسمه هذا ما يُشعر بكونه اسرائيلياً مرتدًّا الى النصرانية او منتمياً الى أسرة يهوديّة كما زعم الكاتب رَيت (١ فان كثيرًا من نصارى اليعاقبة يدعون اولادهم بهذا الاسم الى يومنا هذا. ولعلّ في تسمية ولده بابن العبري دليلًا على ذلك لكننا بعد البحث المدقّق عن هذه القضيّة وجدنا في المؤرّخين ما ينقض هذا الرأي فضلًا عمّا يؤيّده. فانّ العلّامة رينُودوت ذكر في مجموع الليتورجيّات (ص ٦٦٩) انّهُ وجد في نسخة خطّيّة من اعمال ابن العبري في باريس انهُ كان ابن اخي البطريرك ميخائيل الكبير السابق ذكرهُ وهو من اشهر كتّاب اليعاقبة لم يكُ اهل ملّته ليرضوا بانتخابه بطريركاً وفقاً لقوانين الكنيسة الشرقيّة لو كان حديث العهد بالنصرانيّة

وكان لاهرون اولاد كثيرون توفي اربعة منهم قبل ابن العبريّ وهم ميخائيل وموفّق وقُوفر وساوير وكان طبيباً. ولابن العبري فيهم مراثٍ ذُكرت في ديوان شعره السرياني (٢ (ص ١١٨—١٢٨). وعاش بعدهُ اخٌ لهُ خامس اسمهُ يوحنا صافي الذي تمّم تاريخهُ الكنسيّ بعدَهُ

ودعي ابنُ العبري في المعموديّة باسم يوحنّا يشهد بذلك التاريخ السرياني المحفور على ضريحهِ في دير مار متّى (٣ واتّخذ لهُ في الكهنوت اسم غريغوريوس. ولُقّب بابي الفرج تيمُّناً بهذا الاسم وليس بولدٍ لهُ اسمهُ فَرَج كما ظنّ برُنستين في مقدّمة طبعتهِ لتاريخ الدول السرياني (ص ٣) والعلّامة بروكلمان في مقدمة تاريخ مختصر الدول (ص ١) ونحن نعلم علماً اكيدًا انّ ابن العبري لم يرتبط قطّ بسُنّة الزواج لانّهُ ترهّب وهو حديث السنّ كما

---

١) Syriac Literature, p. 265

٢) طبعهُ في رومية الاب اوغسطين الشابلي ١٨٧٢

٣) راجع كتاب العلّامة باذجر عن النساطرة (Nestorians, I, 97)

سيأتي . فضلاً عن انَّ الاساقفة لم يُنتخبوا سوى بين الرهبان الملازمتهم نذر العفَّة . وقد روى ذلك ابن العبريّ ذاتهُ في مجموع القوانين الكنسيَّة (الجزء الأول الفصل السابع القسم العاشر) (١

وقد وهم ايضاً بوكوك بظنهِ انَّ ابا الفرج بن العبري هو ابو الفرج المدعوّ بابن الطيّب فخدع بمشابهة الاسم مع انَّ ابن الطيّب كان نسطوريًّا وتوفي قبل ابن العبريّ بنيف ومائتين سنة (١٠٤٣ م) . والعجب من ذلك انهُ خلط بين هذين المذكورين وابي الفرج يعقوب المشهور بابن القفّ المتوفّى سنة ١٢٨٦ وكلُّ ذلك خطأ واضح

٣

ولمَّا كان اهرون من وجهاء قومهِ يُحسن الدروس الطبيَّة (٢ ويتعاطى العلوم الفلسفيَّة جعل يُلقّن ابنهُ يوحنَّا مبادئ المعارف البشريَّة وهو بعدُ حديث السنّ ليتشرَّب منذ نعومة اظفارهِ حبَّ العلوم فيهيم بدراستها . وكان الولد ذا قريحة وقّادة تلوح عليهِ امارُ الفهم والذكاء . فما لبث ان احكم هذه الدروس الأوَّليَّة حتَّى اضطرَّ والدهُ الى ان يدفعهُ الى ابرع اساتذة بلدهِ . فاقبل الشابّ على حفظ اللُّغات الثلاث السريانيَّة واليونانيَّة والعربيَّة وأحرز بزمن قليل دقائقها حتَّى تضلَّع بآدابها وجعل يكتب فيها جميعاً بسهولة غريبة والحقّ يقال انَّ تآليفهُ تنطق بلسان حالها عن براعتهِ من هذا القبيل فمن يقرأ كتبهُ بالعربية او السريانية يقضي لهُ بتمام معرفة اصول اللغتين . امَّا اليونانيَّة فاننا نعلم طول باعهِ فيها من تعريبهِ لكتب كثير من فلاسفتها الاقدمين كارسطو وغيره

ثمَّ انكبَّ على درس الفلسفة واللاهوت فلم يدع مطلباً الَّا بحث عنهُ ولا مشكلاً الَّا حاول فكّهُ حتَّى حاز بعد سنين قليلة قصبات السبق على معاصريهِ من الشرقيين وسنرى ما خلَّفهُ بعدهُ من المآثر العلمية في هذين العلمين الساميَين . وزاد عليهما درس

---

١) ولا يخفى ان الكنّي بأبي فلان كان جارياً في ذلك العصر يُراد بهِ مجرَّد اللَّقب ومثال ذلك كثير خصوصاً عند النصارى كابي البركات وابي الطيّب وابي الحليم . ولا تزال هذه العادة الى يومنا في بعض انحاء سوريَّة

٢) كان لاهرون اليد الطولى في فنّ الطبّ حتَّى انهُ كان يُعرف بالحكيم فدعي ابنهُ لذلك بابن حكيما

الطبّ مع فروعه المختلفة اخذ ذلك الفنّ عن ابيه الطبيب الطرابلسي وعن غيره من العلماء.

وبينما كان ابو الفرج منكبًّا على هذه الدروس مرتشفًا لسلافة العلوم الالهيّة والبشريّة اذ دوت في آذانه جَلَبَة جيوش هولاغو ملك تتار المغول سنة ١٢٦٢ وكانوا فتحوا بلاد الروم واخذوا عدّة سيواس وقيسارية فزحفت منهم فرقةٌ على ملطية يريدون نهبها وحرقها. وقد اخبر ابن العبري في تاريخ الدُّول (ص ٤٤١) ما لحق باهل البلد من الخوف والهلع عند قدومهم وكيف اراد ابوه اهرون ان يهرب مع عائلته فعدل عن ذلك واجتمع بالطوان ديونيسيوس وألّف قلوب المسلمين والنصارى وكفّ اهل الشرّ عن الفساد. قال: «فنظر الله الى حسن نيّاتهم ودفع العدوّ عنهم ووصلوا بالقرب من ملطية ولم يتعرّضوا لها»

لكنّ المدينة لم تسلم من شرّ التتار في السنة التالية (١٢٦٣) فشنّوا الغارة عليها وخرّبوها وعاثوا في ساحتيها. وكان قائدهم يَساوُرتَوين مصابًا بداء عرض له فطلب طبيبًا يداويه فدلّهُ المَلَطيّون على اهرون ابي صاحب الترجمة فاستدعاهُ القائد واخذهُ في خدمته الى خَرْتَبِرت فعالجهُ اهرون حتى برأ. قال ابن العبري (تاريخ الدول ص ٤٤٦): «ثم جاء ولم يُطل المقام بملطية ورحل بنا الى انطاكية فسكنّاها»

وكانت وقتئذٍ انطاكية من أُمّهات المدُن تُعتبر كاحدى قواعد المشرق وعواصم الثغور الشاميّة موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير (١. وهي لم تزل بعدُ في يد الافرنج يتولّاها ملوكهم منذ سنة ١٠٩٨. وكان صاحبها يوم دخلها اهرون وابنهُ بُوهِيمُوندُ الخامس وهو يدعى امير انطاكية وطرابلس مَلَكها منذ سنة ١٢٣٣ الى نحو سنة ١٢٥١. وكانت انطاكية من احصن مدن الشام يحميها جبالها ونهرها العاصي وتحفّ بها عِدّة بروج. قال العيني في كتاب عِقد الجُمان يصفها في ذلك العهد (٢: انّ سور انطاكية اثنا عشر ميلًا وعدد بروجها مائة وثلاثون برجًا يطوها اربعة وعشرون الف شُرفة (اه). وكانت نصارى جميع الطوائف تتقاطر اليها لحرازتها هربًا من غزوات التتار وغارات ملوك خوارزم وطلبًا لاسباب المعاش فيرتعون ظلّها في بحبوحة الامن والسلام.

---

١) معجم البلدان لياقوت الجزء الاول ص ٣٨٢

٢) Hist. Orientaux des Croisades I, 1 p. 228

وكانت تجارتها واسعةً يقصدها تجار العراق وما بين النهرين والشام برًّا وترسو في ميناء فُرْضتها السُّويديَّة المراكب ناقلة اليها بضائع الغرب رأمتعتها الفاخرة. وكان عدد نفوسها ينيف على مائة الف بين فرنج وسوريين وروم وارمن ومسلمين ويهود. وكان في وسط البلد كنيسة كبيرة بُنيت في ايام يستنيان على اسم الرسولين بطرس وبولس تُعدّ من عجائب الدنيا وهي مقام بطريرك لاتيني يجلس فيها على كرسيّ من الرُّخام الابيض البديع الصُّنع كُتبت عليه آيات الانجيل بالحرف الكوفيّ وهو اليوم محفوظ في البندقيَّة

وكان بطاركة اليعاقبة اتخذوا لهم في انطاكية دارًا واسعةً بناها اغناطيوس الثاني سنة ١٢٣٧ بقربها كنيسة طائفتهِ الكاتدرائية على اسم الرسول الحبيب ولهم فيها ما عدا ذلك ثلاث بِيَع الواحدة مشيَّدة على ذكر السيّدة والثانية بيعة الشهيد جرجس والثالثة كنيسة برصوما وكان للارمن رئيس اساقفة يسكن انطاكية. اما بطريرك الروم الانطاكي فكان مقامهُ اوَّلًا في القسطنطينية يتردّد من وقت الى آخر على رعيَّتهِ. ولهُ في انطاكية كنيسة كاتدرائية. ولمَّا كانت زلزلة سنة ١١٧٠ خربت الكنيسة وكان من جملة القتلى البطريرك نفسهُ (١). وفي سنة ١٢٤٠ خضع البطريرك داود للحبر الروماني فسكن انطاكية

٤

فما كاد يصل اهرون واهلهُ الى انطاكية ويستقرُّ بها قرارهم حتَّى اخذ ابنهُ يتردّد على علماء البلد ليجني منهم ما امكنهُ من الآداب والمعارف وعمرهُ اذ ذاك لم يتجاوز ثمانية عشرة سنة. وكانت علومهُ تزيدهُ زهدًا في الدنيا وملذّاتها فاستأذن اباهُ بهجر العالم لينقطع الى النسك والانفراد. فخرج الى جبل بجوار انطاكية واختار لهُ هناك مغارةً تجرَّد فيها لاعمال التقوى والعبادة والشغل بالدرس. الَّا انَّ صيتهُ انتشر في تلك الاصقاع وعلم بسكناهُ البطريرك اغناطيوس فاحبَّ ان يزورهُ في منسكهِ وينشّطهُ في إتمام قصدهِ. وقد لمَّح ابن العبري الى هذه الزيارة في بعض قصائدهِ السريانيَّة

وبقي ابن العبري ملازمًا لطريقة النُّسَّاك سنةً فقط. ثمَّ خرج الى طرابلس الشام قاصدًا يعقوب احد مشاهير النسّاطرة الذي كان يدرّس فيها العلوم الادبيّة والرياضيّة والطبيّة فتتلمذ لهُ عاكفًا على تحصيل ما فاتهُ سابقًا من فوائدها وتعارف هناك باحد وجهاء ملَّتهِ

(١ Rey : *Colonies Franques en Syrie* 325-328 te 89

اليعقوبية اسمهُ صليبا وَجيه بن يعقوب من اهل الرُّها. وكان كلاهما مشغوفًا بعلوم الاوَّلين يتباريان في اقتباسها كفرسي رهان ويجريان في عنانٍ فاشتغلا مدةً على المعلم النسطوري المنوّه بذكره حتّى برعا في آدابهِ وبرزا

فسمع البطريرك اغناطيوس سابا ما احرزهُ الطالبان من كنوز المعارف فاستقدمهما الى انطاكية ورقّاهما كليهما درجة الاسقفية في يوم عيد الصليب سنة ١٢٤٦ وعهد الى صليبا شؤون كنيسة اليعاقبة في عكة الّا انهُ لم يدخلها فنُقل الى كرسي حلب وتسمّى باسيل وسيأتي ذكرهُ آنفًا (١

اما ابن العبري فوكل اليهِ البطريرك رعاية بني ملّتهِ في جُوباس وهي مدينة صغيرة من اعمال مَلَطية. ولم يكن اذ ذاك عمر ابي الفرج يتجاوز العشرين سنة وذلك بلا ريب من غرائب الامور يناقض سُنَن الاباء الذين لم يرضوا لهذه الدرجة الّا كهولًا في تمام السنّ مزدانين بكلّ الفضائل والصفات الحسنة. الّا انّ النسطرة واليعاقبة كثيرًا ما نبذوا هذه القوانين ظهريًا وتعدّوها. وعلى كلٍّ فانّ ترقية ابن العبري تُبيّن ما كان يبنيهِ رئيسهُ عليهِ من الآمال لخير شيعتهِ وهو في ريعان شبابهِ. وسنرى كيف حقّق الاسقف الجديد آمال بطريركهِ (ستاتي البقية)

الفيلوكسيرة او دودة الكرم *

لجناب الشاب الاديب سليم افندي اصفر

انّ بعض الجرائد المحلّية نشرت من زمن قريب بالاستناد الى بلاغٍ اذاعتهُ نظارة الزراعة الجليلة ظهور الفيلوكسيرة في كروم حيفا. وبما ان خبرًا كهذا مشؤومًا لم يؤثر في اهل البلاد شيئًا ولم تَرَ اهمّيتهُ عندهم على نبأ اعتيادي وجب على العارفين بالداء المذكور

(١ راجع التاريخ الكنسيّ لابن العبريّ الجزء الثاني ص ٦٦٧ — ٦٧٠ (ed. Lamy)

* راجعنا لكتابة هذه المقالة التآليف الآتية:

G. Foex *Cors de Viliculture* — Pierre Joigneux: *Le Livre de la Ferme* — E. Brocchi ; *Traité de Zoologie Agricole.*